ISSN 1989-9572

DOI: 10.47750/jett.2025.16.04.22

Dialogue between the University and Popular Heritage "A Study in the Sociology of Algerian Popular Proverbs"

Dr. Boulanouar ali [1], Dr. benguesmia rachid [2]

Journal for Educators, Teachers and Trainers, Vol. 16 (4)

https://jett.labosfor.com/

Date Of Reception: 21 Dec 2024

Date Of Revision: 26 Feb 2025

Date Of Publication: 10 May 2025

Dr. Boulanouar ali 1, Dr. benguesmia rachid 2 (2025) Dialogue between the University and Popular Heritage "A Study in the Sociology of Algerian Popular Proverbs", *Journal for Educators, Teachers and Trainers*, Vol.16 (4) 344-354

Journal for Educators, Teachers and Trainers, Vol. 16 (4)
ISSN 1989 –9572
https://jett.labosfor.com/

Dialogue between the University and Popular Heritage "A Study in the Sociology of Algerian Popular Proverbs"

Dr. Boulanouar ali [1], Dr. benguesmia rachid [2]

1: Higher Normal School of Bou Saada, Laboratory: The pedagogical issue and related issues, (Algeria), boulanouar.ali@ens-bousaada.dz

2: Higher Normal School of Bou Saada, Laboratory: The pedagogical issue and related issues, (Algeria), benguesmia.rachid@ens-bousaada.dz

Abstract:

Arab universities, as an educational knowledge institution, should engage in dialogue with themselves and with others; with themselves to achieve balance between members of Arab society, which is a human fabric with diverse customs and traditions; and with others to exchange ideas, information and experiences.

Based on the above, the policy of Arab universities should be based on building bridges of dialogue and communication between all segments of society, and striving to open dialogue with folklore and heritage, especially popular heritage; research into this heritage is a civilized and authentic behavior.

Keywords:

Arab universities, folk heritage, sociology, Algerian popular proverbs

حوارية بين الجامعة والتراث الشعبي "دراسة في سوسيولوجية الأمثال الشعبية الجزائرية"

أ.د. علي بولنوار[1]، د. رشيد بن قسمية [2]

1: المدرسة العليا للأساتذة، بوسعادة، مخبر المسألة البيداغوجية والمسائل المتعلقة بها، boulanouar.ali@ens-bousaada.dz

2: المدرسة العليا للأساتذة، بوسعادة، مخبر المسألة البيداغوجية والمسائل المتعلقة بها، benguesmia.rachid@ens-bousaada.dz

ملخص:

الجامعات العربية مؤسسة معرفية تربوية شأنها شأن بقية جامعات العالم ينبغي– وبدافع القوة– أن تدخل في حوارية – طوعا أو كرها– مع الذات ومع الآخر؛ مع الذات لتحقيق التوازن بين أفراد المجتمع العربي الذي هو نسيج بشري متباين في العادات والتقاليد. ومع الآخر لتبادل الأفكار والمعلومات والخبرات.

وعلى المؤدى السابق؛ ينبغي أن تقوم سياسة الجامعات العربية على بناء جسور الحوار والتواصل بين كافة فئات المجتمع، والسعي بجدية على إنشاء قنوات للحوار البناء مع الفلكلور والتراث وبالخصوص الشعبي منه؛ فالبحث في هذا التراث حاجة ملحة تفرضها إشكالية البحث في القيم الثقافية والفكرية الأصيلة للشخصية الوطنية في تجلياتها المختلفة. وبالتالي فالعودة إليها سلوك حضاري، كما هو سلوك أصيل.

الكلمات المفتاحية:
الجامعة العربية، التراث الشعبي، سوسيولوجيا، الأمثال الشعبية الجزائرية.

ما الثقافة؟

من غير شك أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون كثيرة، متباينة أحيانا ومتقاربة أحيانا أخرى، إلّا أنه ومهما يكن من أمر فإن الإجابات سوف لن تخرج عن كون مدلولية كلمة الثقافة، تعني "المعرفة".

ما المعرفة؟

الأمر هنا أيضـــا لا يختلف، بحيث ســـتكون الإجابة متباينة ومتقاربة في أغلب الأحيان، فلا نجد مانعا أن تكون الإجابات متناقضة، ذلك أنها وببساطة سوف لن تخرج عن دائرة أو حدود معنى كلمة "العلم".

وإذا كانت المعرفة هي العلم، وكان العلم يشكل قلب الإنسانية، فالمؤسسة الجامعية تعدّ نبض هذا القلب، ويبقى هذا النبض قائما ما دامت الجامعة محافظة على هويتها التي تنبع من أصـالة المجتمع، يوجهها البحث والتطوير العلمي السـليم التواق لآفاق لا متناهية. من هنا تزدهر الجامعة لتقود متجه الحضـارة في المجتمع. فالجامعة كمؤسـسـة معرفية ينبغي أن تحافظ على دورها الريادي في خلق المعلومة وإيصـالها إلى جميع أفراد المجتمع في مسـتواه الأعلى، توصـيلا مباشـرا أو توصيلا غير مباشر، وإلا سنفيق يوما ونجد أنفسنا وقد استغنينا عن الجامعة.

وبخصـوص الجامعات العربية، نقول: إنّ الجامعات العربية شـأنها شـأن بقية جامعات العالم ينبغي، وبدافع القوة أن تدخل في حوارية –طوعا أو كرها– مع الذات ومع الآخر. مع الذات، بين الجامعات الوطنية لتحقيق التوازن بين أفراد المجتمع العربي، الذي يتكون من نسـيج بشـري متباين في العادات والتقاليد.ومع الآخر،مع الجامعات العالمية لتبادل الأفكار والمعلومات والخبرات، حتى وإن كانت الجامعات تختلف في مبادئها وقوانينها.

لأنه ومن الضـــروري أن يعكس حوار الجامعات الرغبة المتبادلة في التعايش والتعاون والتفاهم بين مختلف الثقافات للوصـول إلى بيئة سـليمة وفضـاء مسـتقر يقوم على ضـرورة الاتفاق على الحد الأدنى المشـترك من القيم الإنسـانية الكونية والسلوكيات الأساسية التي تتقاطع فيها مختلف الحضارات والثقافات والكفيلة بتحقيق قيم العدالة والحرية والمساواة، دون إلغاء مبادئ الاختلاف والتعدد الحضاريين.

إن سياسـة الجامعات العربية ينبغي أن تقوم على بناء جسور الحوار والتواصـل بين كافة فئات المجتمع والسـعي بجدية على إنشاء حوار بناء مع التراث وبالخصوص الشعبي منه.إن البحث في هذا التراث حاجة ملحة تفرضـها إشكالية البحث في القيم الثقافية والفكرية الأصيلة للشخصية الوطنية، وبالتالي فالعودة إليه سلوك حضاري كما هو سلوك أصيلي.

إن مؤسسات حفظ التراث الشعبي بهذا الاعتبار تتحول إلى ورشة أو مصنع للأفكار التي بها تنتعش المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في البلاد، وبها يتقدم البحث العلمي خطوات إلى الأمام، وبها يتم التواصل بين ثقافتنا وقيمنا الحضارية، والتعريف بقضايا القومية ، وبها أخيرا تتم التنمية الشاملة من تعارف وتعاون وتقارب بين الأمم والشعوب.

أهمية التراث الشعبي:

التراث وسيلة فعالة من وسائل النهوض بالبلاد في مختلف المجالات. ولذا وجب الحرص على ألا ينحرف عن وجهته الصحيحة ؛ فالتراث الشعبي مركب خصب من الثقافة الروحية والمادية للشعب، وتناوله كحياة ودراسته كتعبير هو دراسة للشعب وكشف عن شخصيته. وفي ضوء هذه المعطيات فقد ظهرت اهتمامات وطنية وقومية عند معظم شعوب العالم لجمع التراث وتصنيفه ودراسته .

وقد تمثلت هذه الاهتمامات في جزء كبير منها في تأسيس متاحف اثنوغرافية وطنية أو قومية تشتمل على كل ما أنجزه أفراد هذا المجتمع أو ذاك من عناصر ثقافية مادية أو غير مادية ، وذلك بهدف إحياء هذا التراث والمحافظة عليه وصونه من الضياع والاندثار من جهة، وليكون هذا التراث علامة بارزة على حيوية هذا المجتمع ودليلا حسيا على قدرة إفراده على مواجهة تحديدات وجودهم من جهة أخرى.

المثل الشعبي:

إن تراث أي مجتمع من المجتمعات هو انعكاس للحياة الاجتماعية في الماضي مثلما هو صوت الحاضر المدوي وصداه . وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن القول: إن إلقاء نظرة شاملة على مكنونات هذا التراث وعناصره المختلفة تعطينا صورة واضحة عن بنية المجتمع وتواصله وعن نسقه الثقافي بشكل عام. وبما أن عناصر التراث الشعبي عديدة متشعبة ، فإن حديثنا سيقتصر عن الأمثال الشعبية، والتي تعد نتاجا فرديا/جمعيا خلاقا ، كما هي نتاج لكثير من الأوضاع الثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها. إنها نوع من الصراع الحتمي بين الايديولوجيا الشخصية، والايديولوجيا الجماعية لشعب ما.

فكما هي تعبير ذاتي تعد –أيضا– تعبيرا اجتماعيا، لذا توصف في كثير من الأحايين بالظاهرة الاجتماعية، فهي تلم بجميع الحتميات التي تفرضها الظروف الاجتماعية، لذالك هي لا تولد إلا من رحم الصراع القائم في عمق النفس البشرية بين ما هو ذاتي وما هو جمعي.

لقد قدمت الأمثال الشعبية صيغة شاملة لثقافة الإنسان الشعبي ونظرته إلى الحياة بوضوح. والبحث في المثل العام إنما هو بحث في حياة فئات العامة من الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم في تعاملهم وأخلاقهم وعاداتهم... إن المثل من خلال الجزئيات الصغيرة التي يعرضها في تواضع وهدوء يناقش هذه المواضيع ويفسرها ويعطي صورة حية لطبيعتها. ومن هنا يتبين أن الأمثال قد استمدت مادتها من المجتمع فهي بذلك احتوت قيمه ومعتقداته وحقائقه وقدمتها من بعد للفرد حكمة يسترشد بها في حياته لذلك فإن ارتباطها بالمجتمع ارتباطا وثيقا. ويمكن أن نستوضح صورة المجتمع، قيمة ومعتقداته ومثله من خلال الأمثال، وهذه القيم والمعتقدات والمثل هي روافد حكمة الإنسان الشعبي في الحياة.

وهذا المفهوم يستطيع أن يفسر أهمية الاتجاه نحو دراسة الأمثال التي تعد دراسة للقطاعات الشعبية صاحبة الجهد الحقيقي في بناء الدول. والواقع أن دراسة القطاعات الشعبية من خلال نتاجها الفكري تعد خطوة جديدة في مجال الدراسات الإنسانية تفرضها ضرورات إنسانية واجتماعية وعلمية.

أهمية الأمثال الشعبية:

إن المثل الشعبي يغذي الفكر السائد للطبقات المكونة للمجتمع من خلال الخبرات والتجارب التي مرت بها وصاغتها في تلك العبارات القصيرة التي تلخص حدثا أو تجربة فتحصيه وموقف الإنسان من هذا الحدث أو هذه التجربة في أسلوب غير شخصي وأنه تعبير شعبي يأخذ شكل الحكمة التي تنبني على تجربة أو خبرة مشتركة.

إن الأمثال تعد بحق سرا من أسرار الإلهام الشعبي وتعبيرا حيا عن المكنونات والطاقات الهائلة التي تزخر بها الشعوب. فبواسطتها يتم التوصل الى أخلاق الأمم وأطوارها، ومنها تؤخذ حالتها الاجتماعية والإخبارية.لقد عبرت بصدق عن حقائق الحياة العامة ، وبخاصة ما يتعلق بنمط العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد والمجتمعات.

فرغم قصر المثل الشعبي إلا أنه لفت انتباه الدارسين وأولوه عناية خاصة، فراحوا يبحثون عن سّرفلسفته، الجمالية والاجتماعية والسياسية وما إلى ذلك.وقد تفاوتت النظرة إليه من حيث شكله ووظيفته.يرى عبد الرحمان التكريتي بأن الأمثال تعدّ خلاصة التجارب وسجل الوقائع ومصدر التراث، بل فهو مرآة الأمم التي تعكس واقعها.يقول: " أمثال كل أمة خلاصة تجاربها ومستودع خبراتها ومنار حكمتها ومرجع عاداتها وسجل وقائعها وترجمان أحوالها ومصدر تراثها ومتنفس أحزانها... فهي مرآة الأمة تعكس واقعها الفكري والاجتماعي بصفاء ووضوح "

[1]. بينما يرى حسين الجليلي بان الأمثال خلاصة حكاية أو حادثة ذهبت وبقي هو رمزا لها كما قد يكون قولا يأخذ طابع التعليم والوعظ والإرشاد دون أن يرتبط بقصة أو حكاية. يقول: " الذي أعتقده أن المثل: خلاصة حكاية قيلت أو حادثة وقعت في وقت من الأوقات ، فذهبت وبقي المثل رمزا لتلك الحكاية أو موجزا لحوادثها ، وقد يكون المثل تعليميا أو وعظيا أو إرشاديا، ولم يرتبط بقصة أو حكاية"[2].أما أحمد أمين، فالأمثال الشعبية تمثّل عنده ،" نوعا من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب"[3].

وعند باحث آخر نجد الأمثال حياة كاملة، وفضـــاء يحوي كل الفنون،إلى جانب كونه صـــورة من البلاغة العربية بتركيبته الفنية ، وفي هذا المعنى يقول فوزي رســـول: " إن الأمثال ، بحق، دنيا كاملة:حكمة وأحلام ،حماســـة ووصـف،سـياسـة واقتصـاد وقواعد صـحية واجتماعية،هي صـور من البلاغة العربية، وهي بعد ذلك حياة وما فيها من هموم وشجون"[4] . ومن الباحثين الغربيين نعرض موقفين لـــ"فريدريك زايلر" و"الكسندر كراب". فالمثل عند الأول قول يتداوله الشعب يتميّز بطابع تعليمي وبشكل أدبي، يقول: "المثل هو القول الجاري على ألسنة الشعب الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة"[5] .

أما "كراب" فالمثل عنده يمثل أسلوبا "من أساليب الفولكلور العريقة تردد خلاصة التجربة اليومية وأن الإبداع في صياغة الأمثال يكمن في إبداع أفراد في الأصل، ولكن جمهرة الشعب والعامة هم الذين أذاعوها وروّجوها وتواتروها"[6].

رغم هذه – الجزئية – في النظرة إلى المثل الشعبي،إلا أنه في النهاية لا يخرج عن كونه صورة حية ناطقة لطبيعة الشـعب ، وسـجل ثقافي حافل بكل أنماط الحياة وتفرّعها وأنشـطتها المختلفة.وهذا ما يفسـر أهميته في مجال الدّراسـات الاجتماعية باعتباره وثيقة اجتماعية، كما في مجال الدراســـات الأدبية باعتباره من ألوان الفن الأدبي. وحين تتآزر الدراستان الاجتماعية والأدبية، فإن الصورة الشعبية تبدو زاهية ذات ألوان حية صادقة.

سمات المثل الشعبي:

ما يزيد من سـحر الأمثال الشـعبية أنها تصـاغ بلغة متميّزة، وهي مسـجوعة في أغلب الأحيان، وهذا ما يجعلها أسـهل للحفظ ومن ثمة أكثر تداولا وانتشـارا وأسـرع إلى التغلغل في أعماق الإنسـان الشـعبي. إلى جانب ذلك، فالمثل يمتاز بألفاظه القليلة التي تحمل الكثير من المعاني وتطوي الكثير من التفصـــيلات، وربما هذا الذي دفع أبا هلال العسكري للقول: "ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام. وتدخل في جلّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخف اسـتعمالها، ويسـهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله، وأشـرفه وأفضـله، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسـر مؤنتها على المتكلّم، مع كبير غايتها، وجسـيم عائدتها. ومن عجائبها إنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب، والحفظ موكل بما راع من اللفظ وندر من المعنى "[7]

وكما تفضّل فوزي رسول سابقا، فإن الأمثال الشعبية دنيا كاملة، حكمة وحماسة واقتصاد وصحة واجتماع. غير أن الإلمام بهذه الجوانب في هذه المناســبة أمر صـــعب، لذلك قصـــرنا بحثنا على جانب واحد، يتمثل في الدلالات الاجتماعية. ونعتقد أن إلقاء نظرة ــ ولو بسيطة ــ على الدلالات الاجتماعية لهذا الجنس الأدبي تعطينا صورة واضحة عن بنية المجتمع وعن نسقه الثقافي بشكل عام. والوقوف عند الاختلافات الحاصلة بين نمط وآخر من الأمثال يكشف لنا عن دينامية هذا المجتمع أو ذاك، وعن حجم اســـتجابة أفراده لعناصـــر التجديد وقوى التغيير في كل مرحلة من مراحله.لنصل في الأخير الى جانب من العلاقة النوعية بين الأدب والمجتمع.

الأمثال الشعبية الجزائرية:

إن المتأمل للأمثال الشـعبية الجزائرية يخرج –من أول وهلة– بجملة من القواعد السـلوكية التي تنبئ عن طبيعة هذا الشـعب. فلو أخذنا المثل القائل "الحمار حماري وأنا نركب من واره" يتسرّب إلى ذواتنا الإشارة إلى التمايز الطبقي

؛ إنّنا نحسّ بوجود فئتين في المجتمع، فئة تشقى وتتعب وتكدّ لأجل انتفاع فئة أخرى. فهناك حالة لاعدل ولا توازن، لذا جاء هذا المثل تنفيسا للشعب جراء تسلط فئة على أخرى. ومن هذا المثل نستطيع أن نتصّور الحالة الاجتماعية التي يعيشها الناس. ونستطيع أيضا بناء فكرة عن إحساسهم بما هم عليه ؛ فلولا وعيهم بحالة عدم التوازن والاستغلال لما أمكن أن ينطلق هذا المثل على ألسنتهم. وهذا الذي أهّل الأمثال الشعبية أن تصبح مداخلَ أساسيةٍ لدراسة أحوال الشعوب وأنماط معيشتها وطرق تفكيرها واتجاهات تقدّمها الحضاري.

ومما سبق فالأمثال مصدر مهمّ جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي، فلو نظرنا في الأمثال التي قيلت في العلاقة بين الأم وابنتها، لاستطعنا تحديد طبيعة تلك العلاقة من هذه الأمثال نذكر:" اقلب البرمة على فمها تخرج البنت لأمها"، و"لبنات على الامات و لقلمة (الغنم) على السادات" ، و"ما يشكر لعروسة غير أمها". فهذا الإجماع على تبعية البنت لأمها يعطينا فرصة لمحاولة توجيه سلوك البنت وتربيتها التربية الحسنة إن تحكمنا في سلوك الأم. كما يعطينا من جهة أخرى توجيها لاختيار الزوجة المناسبة، وبناء أسرة فاضلة، بل ومجتمع فاضل. وبهذه الكيفية يصبح المثل مادة نتعرف من خلالها على كثير من السلوكيات الحياتية، وسلاحا لمواجهة الانحرافات الاجتماعية، إنه سياج من القيم يضربه المجتمع من حوله لكي يحمي نفسه.

ونحن نتحدّث عن المرأة نشير إلى أن هناك أمثالا شعبية تشير إلى بعض القيم الخاطئة في حق المرأة، من هذه الأمثال نذكر: "شاور مرتك أو خالف رايها"، "معرفة الرجال كنوز ومعرفة النساء نجاسة"، "اللي(الذي) يحوّس(يبحث) أعلى الخراب يكثّر من النساء و الكلاب" ، "كية النساء ما تتنسى" ، "بات ليلة مع اخوتاتو(أخواته) طلق مرتو" ، "تبكي لمره(المرأة) قبل الزواج ، والراجل يبكي بعده". فالذي يُستشفّ من هذه الأمثال أن المرأة مصدر لكثير من المصائب والمهالك، إن لم نقل كلها؛ فهي توصف بقلة التدبّر والحكمة، بالنجاسة والخراب، وبالفتنة والهلاك، وليس أكثر من أنها صنّفت مع الكلاب في مستوى واحد.

من دون شكّ أنّ هذه الصفات تقلّل من قيمة المرأة وتحقّرها، ففيها ظلم وتعسّف واضطهاد. فالمرأة هنا مقترنة بالخطيئة، وكأنها مخلوق دون فائدة، وهذه سخرية لا يقبلها المنطق. وتتنافى مع تعاليم الشريعة السمحاء؛ فالإسلام كرّم المرأة ومجّدها ، منحها مكانة مشـــرفة ولم يفرّق بينها وبين الرجل؛ إنها الأم والابنة ، الأخت والزوجة، العمّة والخالة الجدة والحبيبة،وما إلى ذلك من الصفات. فمن أين للرجل إذا أن يطعن فيها ويسلبها حقها؟! إنها نظرة ضيقة ولا تعبّر إلا على رأي أفراد دفعتهم تجاربهم الشخصية لأن يصنعوا مثل هذه الأمثال. وهذا يدفعنا للقول: إنّ الرؤى ليست حقائق مطلقة في عموم الأحوال، ذلك أن الذي يصلح في فترة قد لا يصلح في فترة أخرى،وما يطبّق على مجتمع قد لا يطبّق على مجتمع آخر،إنها رؤى لا تتحقق في كل زمان ومكان.فالأســس والمفاهيم تتغير باســتمرار نتيجة للتغيرات الثقافية التاريخية والاجتماعية.

ومن المواضيع الاجتماعية الأخرى التي طرحتها الأمثال الشعبية، موضوع الكسل، وذلك كقولهم:"طويلة وعريضة وفي اليدين مريضــة"، "أربع نساء والقربة يابسة"، "لالا مليحة وزادها ريح الانفاس"، "سيدي مليح زادو الهوا والريح"، "الراقد ما أعطاتو(لم تعطه) أمو كسره".

كما أن الأمثال لا تصف الظاهرة فحسب، راحت تقدم الحلول ، وتمثل ذلك في الأمثال الآتية: "أضرب أذراعك تاكل المسقي"، "الخدمة مع النصارى ولا القعاد خسارة"، "الحر حر والخدمة ما أتضر". فالأمثال هنا ترصد الظاهرة وتعالجها. لذا فهي من الوسائل الفعالة في المجتمع في توجيه الأفراد وتعريفهم بالقواعد السلوكية المستحبة التي ينبغي إتباعها، والقواعد السلوكية التي ينبغي الابتعاد عنها.

وكما عالجت الأمثال الشعبية الكسل، عالجت أيضا الطمع والنّفاق. ومما نذكر في الطمع: "أذكر الماء يبان العطشان"، "كي شاف الضيف طلق مولات الدار"، "على كرشو خلا عرشو"، "جا يسعى خلا عشرة" ، "مول الخبزة طامع في مول الجدق"، "عجبك رخصو خلى نصو" ، "اعطينالو الشحمة لاح يد للخليع" ، "عرضت بنتي جا راجلها".

وفي النفاق:" ياكل مع الذيب ويبكي مع الراعي" ، "ينغز الداب ويدّرق بالبردعة" ، "ياكل في القلة ويسب في الملّة" ، "لالا عدوة و حاجتها حلوة"، "في الوجوه مرايا وفي الذيول مقاص". فالأمثال السابقة تعبير حي عن السلوكيات الخاطئة التي تنهش بنية المجتمع، كما هي دليل واضح تعيش مع الشخص مرات عديدة في يومه ويتسرب إلى دقائق وكبائر حياته ، تطرح وتناقش وتفسر؛ فالأمثال بمعالجتها لهذه المواضيع تكون قد قدمت سجلا شاملا عن ثقافة الإنسان الشعبي، واحتوت نظرته إلى الحياة بكلّ صدق ووضوح. والنظر في هذا السجل كشف عن حياة الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم في تعاملهم وأخلاقهم، وكيف تولدت هذه العلاقات وعن مداها ودورها في تكوين أخلاقيات الناس. ومن هنا تتحدد الدلالات الاجتماعية للأمثال الشعبية .

وإذا كان المؤرخ لا يقف عند دقائق الحياة الاجتماعية ، والشاعر لا يذكر إلا جوانب خاصة من جوانب الحياة الاجتماعية التي يراها هو بمعزل عن المجتمع فإن الأمثال الشعبية هي المعبر الروحي والمادي عن اهتمامات وانشغالات المجتمع ، وهي ناقلة لمحصلة وخبرة المجتمعات. وما من شكّ في أن الإفادة منها أمر محقق. وانطلاقا من كون الأمثال نتاجا جمعيا فهي تكشف عن جوهر شخصية قائليها، وبهذه الكيفية يكون ربط الأدب بعلم الاجتماع ربطا عضويا وثيقا.

علاقتها بعلم الاجتماع:

إنّ عالم الاجتماع بحاجة إلى العودة إلى الأمثال الشعبية كي يدرس ويحلّل، ويكشف ويستكشف أحوال المجتمعات، ونوعية العلاقة التي كانت بين الأفراد. وإذا كان الأدب يقدّم لعالم الاجتماع هذه الخدمة، فإن عالم الاجتماع يمكن أن يقدّم خدمة للأدب في أنه يقدّم له خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية، وفي هذا المعنى يقول "إيدانوف": "يجب أن ينظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع، وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأدب. هذا كان دائما المبدأ الموجه في الأبحاث الأدبية السوفيتية وهو يرتكز على المنهج الماركسي –اللينيني في إدراك الحقيقة وتحليلها، ويستبعد وجهة النظر الذاتية والاعتباطية، التي تعتبر كل كتاب كيانا مستقلا ومنعزلا. فالأدب ظاهرة اجتماعية، هو الإدراك الحسي للحقيقة عبر المصّورة الخلاقة "[8].

ومن الكسل والطمع والنفاق إلى البخل والمكر، الخداع والحسد، العناد والاستهزاء وتحمّل المسؤولية، والأصالة والمحبة.

الحقل الدلالي العام	نمـاذج عنـه
البخـل	"الفروج مايبيض"."خياط ومشـتاق مسـلة"."طباخ أ"و شـاتي مرقة"."جزار وعشـــاه لفت"."القط ما يمد الشـــحمة"." في رجلي ولا في ســـباطي لحمر"."جيبو في ظهرو"."الصدقة ما تخرج من الحبس"."أخدم يا الشاقي للباقي".
المكر والخداع	"اللي حفر حفرة لخوه يطيح فيها"."اللي باعك بالفول بيعو بقشـــوره". "ما يعجبك نوار الدفلة في الودان داير ضـــلايل و ما يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل"."الشين وقلة الدين".
الحسد	" الرجالة تكسب ، والناس تحسب".
العناد	"قال العظم أنا يابس، قالو الكلب أنا فارغ شغل". "معزة ولوكان طارت"."أنت اعليك بترقاق الكسره ، وأنا علي بالعشا مرتين".
الاستهزاء	"المذبوحة تضحك على المسلوخة، والمقطعة تضحك عليهم للزوج". "وش من كرش تولد الذراري". "قد النملة ويعمل عملة". "الطول والجياح".
تحمّل المسؤولية	"اللي ضربتو يدو ما بكى". "عقدتها بيديك،حلها بسنيك".
الأصالة	"مايبق في الواد غير أحجاره"."كل طير يلق بلقاه،وكل ماء يسبح في مجراه".
المحبة	"اللي تحبو قابلو". "اللي يبغيني يقطع وجيني". "حجره من عند الحبيب تفاحة". "اللي بغاه قلبي ما ياكلو كلبي".

يمكننا رصـد عناصـر النهج الأخلاقي من خلال الأمثال السـابقة، وهي أمثال تدعو إلى قيم الجماعة و تكريس طبائعهم التي اعتادوا عليها. وبما أن المجتمع يرفض كل أشـــكال الانحراف، فإنه قد أنشـــأ أمثالا تدعوا الناس دعوة مباشرة وبشكل صريح أن يعدّلوا من سلوكياتهم، فوجّهتهم نحو كثير من الأخلاقيات، من ذلك، القناعة، فعلى الإنسان أن يقنع ويرضى بما لديه، كثيرا كان أم قليلا. ومن هذه الأمثال نذكر: "الشعير والراحة، ولا القمح والفضاحة" ، "اللي ما أشبع من القصعة ما يشبع من لحيسها"، "ما تطلق اللي في يدك ما اتبع اللي في الغار"، "اللي ما كفاه قبرو يجي فوقو ويقعد" ، "اللي ما شبع من اللحم ،ما يشبع من تكداد تلعظم" ، "دورو في الجيب خير من عشرة في الغيب". كما على المرء أن يتجنب الطمع ويقنع بما لديه وذلك لأن "اللي ما هو ليك يعيّيك".

فالمثل الشـعبي من حيث هو انعكاس طبيعي لحياة الإنسـان، فهو لا يرددها دونما هدف واضـح أو سـياسـة مقصـودة، ولكنه يدفع الناس إلى الخير ويحذّره من الالتجاء إلى الشر متبعا أسلوب الترغيب والترهيب، وأحيانا أسلوب النصح. ومن الأمثال الشعبية الدالة على ذلك نذكر:"إللي فاتو وقته ،ما يطمع في وقت الناس" ، "سال مجرّب لا تسال الطبيب، وسال الثعلب ولا تسال الذيب" ، "اللي طاعك طيعو، واللي باعك بيعو" ، "بات على غيض و ما تباتش على ندامة" ، "اللي عينو في الخبز الحامي يبكرلو" ، "دير الخير ونسـاه ودير الشـر وتفكرو"، "اعمل كجارك ،ولا حوّل باب دارك"، "خوض الطريق الصحيحة ولو دارت ،وخوض بنت العم ولو بارت".

هذه إذا جوانب نمطية من الأمثال الشعبية ذات الدلالات الاجتماعية التي تنم عن دينامية المجتمعات وتطور حياة أفرادها، وهي أمثال متجدّدة بتجدّد الحياة الاجتماعية. ونحن نتحدّث عن التطوّر والتجدّد، نشـــير إلى ظاهرة توصـــف بالتناقض، كأن نجد المثل ونقيضــه. ومثال قولهم قولهم : "دمّك هو همّك".فهذا المثل يتناقض مع الأمثال الآتية:"خوك خوك لا يغرّك صـــاحبك" ،"الكلب ما ياكل خوه" ، "بنت عمّك تســـتر همّك". وفي الواقع أن هذا ليس تناقضـــا، بل إنّه تعبير عن تجارب مرّ بها الإنســـان وخلّدها في أمثال لا تزال تعيش بيننا؛ فالذي تأذى من أقاربه ســـيترجم ذلك دون زيادة أو نقصـــان، وهذا من صـــميم وظائف الأمثال الشـــعبية، فهي تعبير صـــادق عن حقائق الحياة الاجتماعية في مختلف جوانبها.

محصول القول:

إنّ الأمثال التي صـنعتها الذاكرة الشـعبية للمجتمع الجزائري وبقيت تتزامن معه حتى وقتنا الحاضـر بصـورة حية، شكلت جانبا مهما من حياته، ومن حيث مسيرته السياسية والاجتماعية والثقافية، تراثا ومعاصرة.إنها المرآة التي عكست عقليته، واتجاهاته وأخلاقه وتقاليده وحياته الاجتماعية مما لا نجده مســـجلا في أي لون من ألوان المعرفة الأخرى. فالذي يتبحّر في مكنون هذا الفن، يجد نفســـه يعيش جزءا مهما من حياته، "ولعل هذا يفســـر لنا اســـتعمالنا الدائم للأمثال،على عكس الأنواع الشـعبية الأخرى مثل الأسـطورة والحكاية الشـعبية والألغاز وغير ذلك. فالأمثال بالنسـبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نودّ أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا"[9]

وبما أن الأمثال قد استمدت مادتها من المجتمع نجدها قد عكست قيمه ومعتقداته وطرحتها دستورا حكميا يُسترشد به. ويتضح من هذا أن هناك أساليب من التراث الشعبي يستطيع الإنسان بواسطتها التعبير عن نفسه، وعن مجتمعه. ويمكن لهذه الأسـاليب أن تحفاظ على قيمة اسـتخدامها التي تحقّقت عبر المد الزمني. ويمكن لها أيضـا أن تتخذ بُعدا جديدا بمرور الزمن. وما من شكّ أن الأجيال الجديدة ستتخذها دستورا، ليس بسبب قيمة استخدامها الأصيلة، بل بسبب قيمتها الثقافية العامة. ومن هنا فلا حرج من أن نقول: إنّ للأمثال الشـعبية أهمية اجتماعية لاغنى عنها، فهو واحد من أشدّ الأسلحة فعالية في الصراع من أجل الحياة، وهو باق اليوم من أجل قيمته الاجتماعية غير المباشرة أكثر من أجل سحره الجمالي المباشر.

وبإمكاننا القول في الأخير: إن التنمية تنشـــأ من الأمثال الشـــعبية بســـبب قيمة المثل الاتصـــالية عند أفراد تلك المجموعة ، وما دامت جميع وسائل الاتصال توحد وتقوي الاهتمامات المشتركة لدى فردين في المجتمع فإننا نستطيع أن نجد هناك أهمية اجتماعية وتاريخية وسـياسـية لهذه الإبداعات التي تشـكل نتاجا تراثيا؛ فالتراث يربط بين الأجيال المختلفة ويوحّد اهتماماتها من حيث يربط بين الأفراد الذين يعيشـــون في مكان واحد وينتمون إلى مناطق مختلفة. وهنا تكمن الأهمية التاريخية للتراث، فهو يزيل حواجز الزمن ويشـــكل كيانا قوميا وثقافيا معينا ويصـــبح جزءا من الكيان الاجتماعي لمجتمع معين.

ونحن نتحدث عن التراث الشـــعبي تنبغي الإشـــارة إلى حقيقة التنمية التي يحققها، وهي التجاوز الدائم للواقع في سـبيل التعالي به. من هنا تبدو التنمية ضـرورة من الضـرورات بالنسـبة للفرد والمجتمع من حيث إن مهمتها نقل الفرد من منطقة العمل فحسب إلى منطقة التفكير في العمل حين ممارسته عن وعي حر. فأن يتجاوز الفرد بها مجرد العمل

إلى التفكير فيه والوعي به للقيام به عن إرادة أو اتخاذ موقف حياله فهو مرتبط حتما بالواقع الحاضـــر وقيمه المختلفة وتراثه ، وبمشاركيه في ذلك الواقع وتطويره على حسب ما يتاح له من قدرة ، وعلى حسب مكانته في مجتمعه ووطنه ، ومكانة وطنه في العالم الذي يعيش فيه.

الهوامش:

[1] : عبد الرحمان التكريتي.الأمثال البغدادية المقارنة، مطبعة العاني، بغداد 1966 مقدمة الجزء الأول.

[2] : حسين الجليلي. مجلة التراث الشعبي وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العدد الحادي عشر السنة الخامسة 1974 ص89.

[3] : أحمد أمين. قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1953ص61.

[4] : الحماسة في المثل الشعبي البغدادي، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،العدد التاسع السنة الحادية عشرة 1980ص14.

[5] : نبيلة إبراهيم. أشكال التعبيرفي الأدب الشعبي، مكتبة غريب الفجالة مصر ط3 ص175.

[6] : الكسندر كراب.علم الفولكلور. ترجمة رشدي صالح،دار الكاتب العربي للتأليف والنشر بالقاهرة 1967 ص36.

[7] : جمهرة الأمثال، نقلا عن عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية،دراسة تاريخية تحليلية ، دار الفكر،دمشق ص 257.

[8] : قصي الحسين، السوسيولوجيا والأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ص115.

[9] : نبيلة إبراهيم، السابق، ص182.

المراجع:

1- أحمد أمين. قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1953ص61

2- الكسندر كراب ،علم الفولكلور. ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي للتأليف والنشر بالقاهرة 1967

3- نبيلة إبراهيم. أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مكتبة غريب الفجالة مصر، ط3.

4- عبد الرحمان التكريتي.الأمثال البغدادية المقارنة، مطبعة العاني، بغداد 1966 .

5- قصي الحسين، السوسيولوجيا والأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

الدوريات:

6- فوزي رسول. الحماسة في المثل الشعبي البغدادي، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،العدد التاسع السنة الحادية عشرة 1980